المسرح الطلابي والفلاحي والعمالي في العراق

المسرح الطلابي:

المسرح الطلابي أو ما يسمى بالمسرح المدرسي: هو مجموعة النشاطات المسرحية في المدارس التي تقدم فيها فرقة المدرسة أعمالاً مسرحية لجمهور، يتكون من الزملاء، والأساتذة، وأولياء الأمور، وهي تعتمد أساساً على إشباع الهوايات المختلفة للتلاميذ كالتمثيل، والرسم، والموسيقى،. ...إلخ. وكل ذلك تحت اشراف مدرب التربية المسرحية، والمسرح المدرسي، لا يعني فن التمثيل فقط وإنما يتعدى الأمر إلى أكثر من ذلك بكثير، إذ إنه يشمل إضافة للتمثيل تعاون عدة مهارات في مجالات أخرى من الفنون، كالموسيقى، والرسم، والديكور، والرقص والدبكة والإلقاء المقرون بمسرحة المناهج التعليمية وبالأخص الأدبية منها، حيث يجب النظر إلى كل ما لدى التلاميذ من مواهب وقدرات ابداعية يتكامل التمثيل فتصبح عملاً فنياً لا يتجزأ. ومن هنا فإن المسرح يعدُّ عملاً اجتماعياً يحتاج إلى تظافر الجهود لاتمام للعمل الفني المسرحي، وبكل المقومات التي يتطلبها، وذلك عن طريق إشراك التلاميذ الذين يملكون طاقات ابداعية يمكن اشتغالها في هذا النشاط. وهناك خلط بين المسرح المدرسي ومسرح الاطفال او ما يسمى بمسرح الطفل، حيث اهملت المدارس هذا النشاط الذي من جلبابه خرج كثير من الفنانين الكبار في العراق والبلدان الاخرى، بل إن مدارس عديدة الغت هذا النشاط تحت وقع المد الديني والتحريم المباشر وغير المباشر، ولولا اهتمام شريحة من المعلمين بهذا النشاط الثقافي المهم؛ لاندثر المسرح المدرسي الى الابد، ولتسليط الضوء عليه ننقل هنا بعض الآراء لمختصصين وناشطين في صناعة المسرح المدرسي.

وبدأتْ الفنون المسرحية في العراق بالظهور مطلع العقود الاولى للقرن العشرين، ممثلة بالفرق المسرحية المدرسية التي عدها(المسرحيون) المحطة الاولى لاكتشاف المواهب الفنية الخلاقة عند تلاميذ المرحلتين (الابتدائية والثانوية) حيث كانت المدارس ترعى، وباهتمام كبير تلك الخامات الفنية اليانعة، اذ اشرف على تدريبها وبلورة مواهبها بالاتجاه الصحيح بعض الاساتذة المهتمين بالشأن المسرحي، لما يشكله هذا الفن الراقي والمعبر عن الواقع المرير الذي يعيشه المجتمع سياسياً واجتماعياً وثقافياً من اهمية بالغة الخطورة في توعية وتثقيف الطبقات المعدمة والفقيرة، فهو المرآة العاكسة لهمومهم الانسانية والوجدانية، ولما يعانيه هؤلاء من ضنك العيش، وظلم وجور الطبقات (الارستقراطية الاقطاعية)، وتعسف وعبودية السلطات

الحاكمة يومذاك. فقد بدأت (المدارس) بتقديم عروضها المسرحية على خشبات مسارحها المتواضعة جداً (داخل بناياتها العتيقة، وفي صفوفها تحديداً، أو على ارضية ساحاتها الخارجية في تلك الايام، إذ تمكنت وبجدارة عالية من ايصال الفكرة وتحقيق الهدف المنشود والغاية المثلى في توعية الالباب الغضة وتطعيمها ـــ ان صح التعبير ـ بالقيم السامية والافكار الوطنية النبيلة، حيث لعب (المسرح المدرسي) ايام زمان، دوراً وطنياً وهاجاً في تاجيج المشاعر الانسانية والروح الوطنية لدى تلاميذ المرحلتين الابتدائية والثانوية، مما القت بظلالها على عموم الشارع العراقي اجتماعياً وسياسياً، وهيأت الاذهان بالاتجاه الوطني الصحيح. وحصل هذا كله، على الرغم من قلة الامكانات المادية والمعنوية، وعدم توافر دور العرض المسرحية النظامية.هذا من جهة. .. ومن جهة اخرى فقد اسهم (المسرح المدرسي) في رفد المعاهد والاكاديميات المتخصصة بالفنون المسرحية والتشكيلية، بالخامات والمواهب والطاقات الطلابية الخلاقة التي امست فيما بعد القاعدة الاساسية للفنون المسرحية والتشكيلية في بلاد الرافدين . ويذكر ان المسرح الطلابي (المدرسي) في العراق قد رفد الحركة المسرحية بالعديد من المبدعين، نذكر منهم الفنان صباح عطوان، اشهر كتاب الدراما في العراق الذي بدأ بالكتابة للمسرح منذ عام ١٩٦٠ والذي صعد على خشبة المسرح المدرسي ممثلاً عام ١٩٥٤ بمسرحية (معن بن زائدة) وقد شكل جماعة المسرح الشعبي بالبصرة عام ١٩٦٥ التي قدمت بالبصرة مسرحية (حسن أفندي) بالبصرة عام ١٩٦٥. كما قدمت له سلسلة اعمال مسرحية لمديرية الفنون الجميلة ببغداد والفرق المسرحية الأهلية والمسرح العمالي طوال السبعينات من القرن الماضي ببغداد ومدن العراق مسرحيات منها مسرحيات: (رصيف الغضب، والأضراب، وكلمن على نيته، وحبزبوز، وعرس الأرض، والغارقون، واللاهثون، وأصوات من نجوم بعيدة، والمحطة، ومملكة الشحاذين، وغيرها).

ويعدّ المسرح المدرسي من الطرائق التعليمية الهامة والمؤثرة في الطلبة، وذلك لقدرته على توصيل المعلومات في يسر وسهولة إلى المتلقي، كما أن المسرح المدرسي من شأنه أن يخلق مدرسة أخرى تعمل جاهدة على تطوير فكر المتلقي (الطلبة) وتنمية مداركهم، لبناء شخصيتهم ومستقبلهم، ولا سيما في تلك المرحلة العمرية (مرحلة الطفولة المتأخرة) التي تتسم بعدة تغيرات شاملة تشمل النواحي (الجسمية، والانفعالية، والاجتماعية، وغيرها)، إذ تتبلور شخصية الفرد في تلك المرحلة، وتكتسب خصائصها الحياتية المقبلة .

وقد تحول النشاط المسرحي في المدارس الى جزء هام من الفعاليات الفنية والترفيهية التي يمارسها الطلبة في المناسبات الوطنية والقومية، واهتمت الدولة بتطوير المبادرات الطلابية وتنظيمها في هذا المجال. وشهد عام ١٩٧٤ مستوى جديداً من التنظيم والوعي المسرحي، إذ أقيم أول مهرجان للمسرح الطلابي بمناسبة يوم المسرح العالمي، واستمر من ٢٧ حتى ٣٠ آذار، وشاركت فيه فرق من معظم المحافظات العراقية بعد إجراء التصفية بينها، وقد افتتح المهرجان بشكل رسمي وباحتفال خاص يعكس الاهتمام بالفن والحرص على ازدهاره. وأثبتت عروض المهرجان وجود طاقات طلابية جيدة في التأليف والإخراج والتمثيل. وتولت لجنة مؤلفة من أساتذة وفنانين ومختصين تقويم الأعمال المشاركة. وبهذا أُرسيَ تقليد عقد مهرجان سنوي للمسرح الطلابي على نطاق القطر، تسبقه مهرجانات محلية في المناطق

الشمالية والجنوبية والوسطى تنتخب خلالها الفرق المشتركة في المهرجان العام. ويجدر الاشارة الى أن مديرية التربية في كل محافظة كانت تشرف على فرقة مسرحية واحدة على الاقل، وتتألف عادة من الطلبة ومدرسي الفن في المدارس، وتقدم خلال السنة الدراسية عروضاً مسرحية ذات أغراض تربوية وتعليمية.

المسرح الفلاحي:

تعود البدايات الاولى للمسرح الفلاحي الى ستينات القرن الماضي عندما انتقل بعض المسرحيين بشكل متقطع بنتاجاتهم الى الريف، وكان معظم هؤلاء من فرق الهواة الموجودة في المدن الصغيرة القريبة من القرى ذات الكثافة السكانية. وانطلاقاً من ضرورة تضييق الهوة الحضارية والثقافية بين القرية والمدينة، بدأ التفكير في نقل المتعة الفنية الهادفة الى الريف. وقد شكلت وزارة الزراعة والاصلاح الزراعي بداية عام ١٩٦٨ فرقاً صغيرة من خريجي المعاهد الفنية، ومن أصحاب القابليات الفنية من الموظفين والعمال، ونشرتها في المحافظات، إذ راحت تتنقل في المناطق الريفية؛ لتعرض مسرحيات بسيطة في لغتها ووسائلها، وتطرح مضامين ذات صلة بحياة الفلاحين، وكانت ترافق العروض المسرحية فعاليات ونشاطات ثقافية وسياسية وارشادات زراعية. وعندما توسعت هذه الحركة وأخذت تجتذب أعداداً كبيرة من المتفرجين؛ انظم اليها عدد من أبناء الفلاحين. وبدأت التجربة تكتسب بعض الخبرات والمميزات الخاصة وأخذت هذه المجموعات تشارك بشكل جماعي في اعداد النصوص التي تتحدث عن ماضي الفلاحين، وكفاحهم السياسي والطبقي ضد الاحتلال الاجنبي والإقطاع .

ومن التجارب الناجحة في مجال المسرح الفلاحي في العراق ما قامت به مجموعة من المعلمين الشباب في الناصرية في تموز عام ١٩٧١، إذ أسست هذه المجموعة أول فرقة مسرحية للمسرح الريفي المتجول في محافظة ذي قار؛ لتقديم عروض مسرحية شعبية في مناطق تواجد الفلاحين في القرى والارياف؛ بهدف توعية هذه الطبقة المهمة من المجتمع باتجاه زيادة الانتاج والتاكيد على أهمية دور المرأة في المجتمع الفلاحي، وحث العائلة الفلاحية على الالتحاق بمراكز محو الامية، وربط الريف بالمدينة. وتم تقديم عروض مسرحية في القرى والنواحي من خلال بناء مسرح بسيط من (بواري القصب) وأغصان الاشجار مع بعض المصابيح؛ لانارة المسرح مستفيدين من المولد الكهربائي الصغير الذى اعارته مديرية التربية، شعبة الوسائل التعليمية للفرقة المذكورة. لقد كان كل شيء بسيطاً كالملابس والاكسسوارات، وكانوا يستفيدون من صوف الاغنام الموجود في القريه لعمل الشوارب واللحى. ويتم دعوة بعض المسؤولين الاداريين كالقائمقام ومدير الناحية والزراعة والجمعيات الفلاحية.. ومما زاد في نجاح هذه التجربة وزيادة تفاعل الفلاحين معها...ان الفرقه كانت تحضر الى القرية بوقت مبكر قبل العرض لاكمال الاستعدادات وكذلك الاطلاع على هموم ومعاناة ومشاكل كل قريه من خلال الاتصال ببعض الشخصيات هناك حيث تطرح اثناء العرض المسرحي باسلوب مبسط وساخر وبلهجتهم المحلية وعلى مراى ومسمع من المسؤولين الإداريين وبلسان ريفي يجعل المتلقي يشعر بالبهجة والارتياح...وكثيراً ما يتعمد الممثلون ذكر بعض اسماء او شخصيات من القرية أو اقتناص بعض القصص والنوادر وحتى بعض الأمثال الشعبية الدارجة على ألسنة الفلاحين وتقديمها مباشرة على المسرح ضمن حوار متقن وطريف وهادف؛ مستفيدين من قدرة

الممثلين على الابداع والارتجال بعفوية رائعة، بعيدة عن الاسفاف والتهريج. وكان يعقب العرض المسرحي يومياً، عروض أفلام سينمائية توجيهية وتثقيفية بواسطة عارضة سينمائية صغيرة، تتم استعارتها من الوسائل التعليمية في المحافظة، وتتناول الطرق الصحيحة للزراعة والصناعات الريفية، وافلام عن محو الامية، وأفلام أخرى عن الثقافة الصحية وتربية الاطفال ثم توالت العروض يومياً في قرى أخرى تابعة الى قضاء الشطرة والغراف والناصرية وسوق الشيوخ.. حتى شملت معظم قرى المحافظة. وقد قامت وزارة الزراعة على اثر ذلك بتاسيس دوائر التثقيف والإرشاد الفلاحي في المحافظات، وانطلقت بعد ذلك نشاطات أخرى في المحافظات على نفس النهج. وكانت حركة رائدة، وبارزة بأهدافها ونتائجها، وحجم الجهود التي بذلت لإنجازها. وقد نجحت هذه التجربة في احداث انعطاف واضحٍ في مسيرة العمل المسرحي باتجاه طبقة مهمة من المجتمع العراقي وهي طبقة الفلاحين التي كانت ولا زالت تعاني من التخلف والفقر.

وفي عام ١٩٧٣ التقت هذه الفرق في مهرجانها المسرحي الاول الذي شكلت من أجله لجنة تحكيم من الوجوه الفنية المثقفة. وأعدت للمهرجان ورقة عمل خاصة؛ لتطوير التجربة بعد دراستها. وبدأت الفرق تستقر بعض الشيء بعد ان اكتسبت خبرة طويلة، وانصرفت الى تنفيذ توصيات المهرجان برفع كفاءة الفرق، والتوجه نحو القرى والقصبات النائية، وتحقيق المهمة المزدوجة في الامتاع والتوعية. ونتيجة لاتساع الحاجة الى المزيد من الثقافة الفلاحية؛ فقد أنشئت عام ١٩٧٦ مؤسسة عامة للثقافة الفلاحية, من واجباتها الرئيسة ايصال المسرح الى أعماق الريف. وتشكلت في العراق فرقتان مركزيتان إحداهما لمنطقة الحكم الذاتي والثانية للمناطق الاخرى، تقومان بعرض نتائجها في جميع ارجاء القطر بشكل متواصل, وابقيت تشكيلات فرق المحافظات ولجان المؤسسة الى اسلوب المسابقة للحصول على افضل النصوص التي تعالج قضية الارض والفلاح سواء كانت لكتّاب معروفين أم جدد. وبهذه الوسيلة استطاعت المؤسسة ضمان وجود رصيد طيب من النصوص في متناول يدها وأرست بداية علاقة دائمة مع الكتّاب.

المسرح العمالي:

ترجع بواكير المسرح العمالي الى العهد الملكي من تاريخ العراق المعاصر، غير ان تلك التجربة لم ترقَ الى ولادة المسرح العمالي ولادة حقيقية، إذ يمكن ان نطلق على تلك المرحلة (مرحلة التجريب والارتجال). ولم يجد المؤلف وثائق مكتوبة أو مسموعة أو مصورة عن تلك المرحلة، غير اشارات قليلة حفظتها لنا بعض الصحف العراقية، إذ تشير المعلومات المتوافرة عن النشاط المسرحي في العهد الملكي الى مناسبات مختلفة قدم فيها العمال عروضاً مسرحية عبرت في كثير من الاحيان عن حاجتهم الى بناء مسرح عمالي له مقومات المسرح الجاد، وكشفت في الوقت نفسه عن ميولهم الفنية الكامنة. وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ قامت مبادرات متفرعة لتقديم اعمال مسرحية عمالية، ولكن المسرح العمالي الجاد المنظم لم يظهر الى الوجود الا بعد عام ١٩٧١، إذ اجتمع في أيار ١٩٧١ (٣٥) عاملاً من هواة الفن المسرحي في مقر الاتحاد العام لنقابات العمال ببغداد وقرروا تشكيل فرقة مسرحية عمالية. في ذلك الاجتماع وضعت صيغة (بيت المسرح العمالي)، وقد اختيرت تسمية (بيت) لتوحي بالألفة وبالجو العائلي

الحميم، الذي كان لا بد من توافره؛ لكي تتمكن المرأة العاملة من كسر جدار التقاليد واقتحام العمل المسرحي. وقد حدد (بيت المسرح العمالي) لنفسه اسساً للتعامل والعلاقات بين منتسبيه، فكان اعضاء هذا البيت يمارسون في نصوصهم واعمالهم المسرحية عملية النقد البناء للظواهر السلبية في المجتمع، ويسلطون الضوء على الامور الايجابية. وبغية تدريب العمال الهواة واعدادهم للمسرح نظم بيت المسرح العمالي لأعضائه دورات ومحاضرات اسهم فيها عدد من اساتذة وفناني المسرح العراقي المعروفين ومنهم: الفنان ابراهيم جلال والفنان بدري حسون فريد، كما اجتاز أعضاء الفرقة دورة في الموسيقى والغناء أسفرت عن تأليف جوقة غنائية ضمت ٧٥ منشداً ومنشدة .

ولم يبدأ بيت المسرح العمالي نشاطه على خشبة المسرح، كما كان منتظراً؛ بل بدأه على شاشة التلفزيون عندما قدم (٥) حلقات تلفزيونية نصف شهرية، ألفها غازي مجدي ووائل العاني وأخرجها ابراهيم جلال. وقد لقيت تلك الحلقات التي عالجت موضوعات مستمدة من واقع الطبقة العاملة في العراق، والتي أطلع بأدوارها عدد من العمال الموهوبين أستحساناً ملحوظاً من جانب المشاهدين.

وعلى الرغم من العدد الكبير من الفرق المسرحية التي تشكلت في بغداد وبقية المحافظات، الا ان عدد المسارح الثابتة في كل العراق لم تتجاوز عام ١٩٧٣ ثلاث صالات مسرحية وهي: (المسرح القومي) و(مسرح بغداد) و (قاعة الخلد)، علماً ان هذه الاخيرة استخدمت لنشاطات اخرى (غير مسرحية) كقاعة للمؤتمرات والنشاطات السياسية. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها (مصلحة السينما والمسرح) في سبيل تشجيع النشاط المسرحي، فان مساعيها تلك كانت تتسم بعدم الجدية والنشاط المحدود . وقد أصدرت هذه المؤسسة منذعام ١٩٧٥ مجلة (المسرح والسينما) وقد توقفت عن الصدور بانتظام.

وعلى صعيد المسرح، اتجه بيت المسرح العمالي نحو النصوص المحلية، فقدم مسرحيتي (البوابة) و(المعادلة) وكلتاهما من تأليف غازي مجدي وإخراج محسن العزاوي وكانتا تشيدان بتجربة تاميم النفط في العراق. وكانت المسرحية الثالثة التي قدمها بيت المسرح العمالي هي (تألق جوكان مريتا ومصرعه) لبابلو نيرودا، التي أعدها مالك المطلبي بعنوان (الرأس) وجعل بطلها ثائراً من ثوار الخليج.

وقد أخرج تلك المسرحيات الثلاث الفنان محسن العزاوي، وأداها اعضاء بيت المسرح العمالي على خشبة المسرح القومي خلال صيف عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥، اي خلال الفترة التي تتوقف فيها الفرقة القومية عن تقديم عروضها. وكان لهذه العروض المسرحية العمالية صداها الواسع، اذ اقبلت عليها جماهير العمال بشغف، كما أقبل عليها عشاق فن المسرح. ولقيت التجربة استحساناً على المستوى العربي فكتبت عنها مجلة (صباح الخير) المصرية ومجلة (الاسبوع العربي) اللبنانية وصحف عربية أخرى. وكان ثمة اجماع على ان هذه الخطوة رائدة جديرة بالتعميم.

ومنذ عام ١٩٧٥ اتخذ النشاط المسرحي العمالي في العراق اشكالاً جديدة وتأسس البيت الثقافي العمالي التابع، وهو جهاز أوكلت اليه مهمة قيادة النشاطات الفنية المختلفة التي يمارسها العمال الهواة. وحل نشاط الفرق العمالية المختلفة التابعة للنقابات محل الصيغة المركزية التي

كانت متبعة. وتأتي في طليعة هذه الفرق، فرقة النقابة العامة لعمال البناء والمشاريع الانشائية، التي قدمت في عام ١٩٧٥ مسرحية (جوهر القضية) المأخوذة عن ناظم حكمت، ثم قدمت في العام التالي مسرحية (جوكر طايف) التي ألفها عبد المنعم جابر. وقد أخرج تلك المسرحيتين وجيه عبد الغني، وبإدارة المخرج نفسه قدمت فرقة النقابة العامة لعمال الميكانيك في أواخر عام ١٩٧٥ مسرحية (رصيف الغضب) وهي من تأليف صباح الزيدي. وقدمت فرقة النقابة العامة لعمال البريد والبرق والمطابع والاعلام، في عام ١٩٧٦، مسرحية (خان جغان) وهي من تأليف جوزيف الفارسي وإخراجه، بينما قدم منتسبو نقابة الخدمات مسرحية (الدغش) التي ألفها حمزة العبيدي وأخرجها قاسم صبحي. وقد مثل بعض هذه الاعمال على خشبة المسرح القومي، ولقي أهتماماً من جانب الصحافة.

ولعل ما ذكره حسب الله يحيى في كتابة (المسرح العراقي ـــ قضايا معاصرة) خير تشخيص للمشاكل التي عاناها المسرح العراقي بشكل عام والمسرح الفلاحي والعمالي والطلابي بشكل خاص في تسعينات القرن الماضي والمسرح العراقي، حينما أشار الى معاناة المسرح العراقي من ازمة عدم توفر نصوص مسرحية جيدة؛ لذلك لجأ عدد من المسرحيين الى مراجعة التراث وأخذوا من صفحاته الشيء الكثير، وانتقلوا الى الموروث الشعبي ونقلوا الى خشبة المسرح بعض مشاهده؛ ولكنهم لم يجدوا في تلك المراجعة وتلك المشاهد التي نقلوها حالة قريبة الى المشكلات المعاصرة للإنسان العراقي.

المصدر : أ.م.د سعد سلمان المشهداني : تاريخ وسائل الاعلام في العراق ، ط ٢ ، عمان ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٤ .